

جامعة تكريت
كلية العلوم الإسلامية
قسم العقيدة والفكر الإسلامي

محاضرات مادة التصوف والأخلاق
المرحلة الأولى
المحاضرة العاشرة

العوامل المؤثرة في نشأة التصوف والأدوار التي مر بها

إعداد

د. عبدالله نجم عبدالله

العوامل المؤثرة في نشأة التصوف والأدوار التي مر بها

أولاً: العوامل المؤثرة في نشوء التصوف:

هناك عدة عوامل أدت إلى ظهور التصوف على الساحة الدينية كان من أهمها ما يأتي:

1- فساد الأوضاع الإجتماعية وطغيان الحياة المادية وضعف العمل الروحي فبعد أن

اتسعت الدولة الإسلامية نتيجة الفتوحات وجد بعض المسلمين أنفسهم أمام ألوان من

الحضارات وضروب من الترف تغريهم وتفتنهم، وقد اعتاد الكثيرون منهم على حياة الترف

وأمعنوا أنفسهم في الإنغماس في الشهوات، فإنما هم يحيون حياة رقيقة تختلف كل الاختلاف

عن الحياة الأولى في زمن الرسول ﷺ ولم يكن نلك ما ره الإسلام لهم ولا ما أراده الرسول

الكريم ﷺ والخلفاء الراشدون، فكان لا بد من رد فعل فنشأ التصوف تعبيراً عن ثورة الوجدان

الداخلي على فساد الأوضاع الإجتماعية القائمة. فأصبحت الحاجة ماسة إلى منهج عملي

روحي يربي النفوس ويزكيها ويعيدها على منهج الرسول والصحابة بعد أن تضائل العمل

الروحي وعزف الناس عن دينهم وركنوا إلى الدنيا لذلك لم نجد الدعوة إلى التصوف في عصر

صدر الإسلام إلا بعد عهد الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وفي نلك يقول الدكتور أحمد

علوش: قد يتساءل الكثيرون عن السبب في عدم انتشار الدعوة إلى التصوف في صدر

الإسلام، وعدم ظهور هذه الدعوة إلا بعد عهد الصحابة والتابعين؛ والجواب عن هذا: إنه

لم تكن من حاجة إليها في العصر الأول، لأن أهل هذا العصر كانوا
أهل تقوى وورع،
وأرباب مجاهدة وإقبال على العبادة بطبيعتهم، وبحكم قرب اتصالهم
برسول الله ، △ فكانوا
يتسابقون ويتبارون في الاقتداء به في نلك كله، فلم يكن ثمة ما
يدعو إلى تلقينهم علماً

⇒ 11 ⇒

→ التصوف والأخلاق للمرحلة الثانية / قسم العقيدة والدعوة والفكر ▽
يرشدهم إلى أمر هم قائمون به فعلاً، وإنما مثلهم في نلك كله كمثله
العربي القح، يعرف
اللغة العربية بالتوارث كإبراً عن كإبر؛ حتى إنه ليقرض الشعر البليغ
بالسليقة والفطرة، دون
أن يعرف شيئاً من قواعد اللغة والإعراب والنظم والقريض، فمثل
هذا لا يلزمه أن يتعلم
النحو ودروس البلاغة، ولكن علم النحو وقواعد اللغة والشعر تصبح
لازمة وضرورية عند
تفشي اللحن، وضعف التعبير، أو لمن يريد من الأجانب أن يتفهمها
ويتعرف عليها، أو
عندما يصبح هذا العلم ضرورة من ضرورات الاجتماع كبقية العلوم التي
نشأت وتألقت على
توالي العصور في أوقاتا المناسبة.
فإلصحابه والتابعون وإن لم يتسموا باسم المتصوفين كانوا صوفيين فعلاً
وإن لم يكونوا
كذلك اأ، ومانا يراد بالتصوف أكثر من أن يعيش المرء لربه لا
لنفسه، ويتحلى بالزهد
وملازمة العبودية، والإقبال على الله بالروح والقلب في جميع الأوقات،
وسائر الكمالات التي
وصل بها الصحابه والتابعون من حيث الرقي الروحي إلى أى
الدرجات فهم لم يكتفوا

بالإقرار في عقائد الإيمان، والقيام بفروض الإسلام، بل قرنوا الإقرار
بالتذوق والوجدان، وزادوا
على الفروض الإتيان بكل ما استحبه الرسول ﷺ من نوافل
العبادات، وابتعدوا عن
المكروهات فضلاً عن المحرمات، حتى استنارت بصائرهم، وتفجرت
ينابيع الحكمة من قلوبهم،
وفاضت الأسرار الربانية على جوانحهم. وكذلك كان شأن التابعين
وتابعي التابعين، وهذه
العصور الثلاثة كانت أزهى عصور الإسلام وخيرها على الإطلاق، وقد
جاء عن رسول الله

ﷺ قوله ((: خير القرون قرني هذا فالذي يليه والذي يليه.))

فلما تقادم العهد، ودخل في حظيرة الإسلام أمم شتى، وأجناس
عديدة، واتسعت
دائرة العلوم، وتقسمت وتوزعت بين أرباب الاختصاص؛ قام كل فريق
بتدوين الفن والعلم
الذي يجيده أكثر من غيره، فنشأ بعد تدوين النحو في الصدر الأول
علم الفقه، وعلم
التوحيد، وعلوم الحديث، وأصول الدين، والتفسير، والمنطق،
ومصطلح الحديث، وعلم
الأصول، والفرائض " الميراث " وغيرها..

⇒ 12 ⇒

→ التصوف والأخلاق للمرحلة الثانية / قسم العقيدة والدعوة والفكر ▽
وحدث بعد هذه الفترة أن أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئاً فشيئاً،
وأخذ الناس
يتناسون ضرورة الإقبال على الله بالعبودية، وبالقلب والهمة، مما دعا
أرباب الرياضة والزهد إلى
أن يعملوا هم من ناحيتهم أيضاً على تدوين علم التصوف، وإثبات
شرفه وجلاله وفضله
على سائر العلوم، ولم يكن نلك منهم احتجاجاً على انصراف الطوائف

الأخرى إلى تدوين
علومهم كما يظن نلك خطأً بعض المستشرقين بل كان يجب أن
يكون سداً للنقص،
واستكمالاً لحاجات الدين في جميع نواحي النشاط، مما لا بد منه لحصول
التعاون على تمهيد
أسباب البر والتقوى.
وقال ابن خلدون في مقدمته: وهذا العلم يعني التصوف من العلوم الشرعية
الحادثة في
الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من
الصحابة والتابعين ومن
بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة،
والانقطاع إلى الله تعالى،
والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما يقبل عليه
الجمهور من لذة ومال وجاه،
والانفراد عن الخلق، والخلوة للعبادة، وكان نلك عاماً في الصحابة
والسلف . فلما فشا
الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة
الدنيا، اختص المقبلون
على العبادة باسم الصوفية.
ويعنينا من عبارة ابن خلدون الفقرة الأخيرة، التي يقرر فيها أن
ظهور التصوف
والصوفية كان نتيجة جنوح الناس إلى مخالطة الدنيا وأهلها في القرن
الثاني للهجرة، فإن نلك
من شأنه أن يتخذ المقبلون على العبادة اأ يميزهم عن عامة الناس الذين
ألتهم الحياة الدنيا
الفانية.
أما تاريخ التصوف فيظهر في فتوى للإمام الحافظ السيد محمد صديق
الغماري (رحمه
الله)، فقد سئل عن أول من أسس التصوف ؟ وهل هو بوحي لآوي ؟

فأجاب:

أما أول من أسس الطريقة، فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحي السماوي في جملة ما

أسس من الدين المحمدي، إن هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة

⇒ 13 ⇒

→ التصوف والأخلاق للمرحلة الثانية / قسم العقيدة والدعوة والفكر ▽

التي جعلها النبي △ بعد ما بينها واحداً واحداً ديناً بقوله ((هذا جبريل عليه السلام أتاكم

يعلمكم دينكم.))

فالإسلام طاعة وعبادة، والإيمان نور وعقيدة، والإحسان مقام مراقبة ومشاهدة ((: أن

تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.))

2- الخلاف مع بعض الفقهاء، حيث أن الصوفية يعتبرون أن بعض رجال الفقه قد

صبغوا الدين بصبغة ظاهرية وجعلوه مجرد رسوم وأشكال ولم يعكفوا إلا على بيان الحلال

والحرام مكتفين بظاهر العلم والعمل مقتصرين في نلك على الجوارح من غير أن يتغلغلوا إلى

باطنه حيث بواعث الأعمال وخطرات القلوب، فأغفلوا جانب الروح وسريرة النفس، فالدين

الإسلامي فيه علم الظاهر والباطن وكل منهما يحتاج إلى علم ومعرفة بأوامره ونواهيه فكما

للجوارح أوامر ونواهي فكذلك للقلب، فالصوفية لم يقتصروا على الأخذ بظاهر الشرع وإنما

أخذوا به ظاهراً وباطناً واعتبروا كل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة غير مقبولة وكل حقيقة غير

مؤيدة بالشريعة غير محسولة بل من قواعد الصوفية المشهورة : كل حقيقة خالفت الشريعة

فهي زندقة.

ويقول الإمام مالك رحمه الله: ((من تصوف ولم يتفقه فقد

تزندق، ومن تفقه ولم

يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق.))

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن إعتراض الصوفية على بعض الفقهاء

لم يكن بسبب

تقصير هذه الطائفة عن استنباط مثل هذه المعاني، وإنما لأن كثيراً

منهم قد وقع في خفايا

الآفات فالعلماء عند الصوفية هم أشد الناس عرضة لصفة الرياء

لذلك قيل: من يعلمك

بريائك وكلك رياء إلا الذين عافاهم الله فيعالجونك بما عالجهم به

الله. فالتصوف ثورة ضد

طغيان كل ما من شأنه أن يكون نا طابع ظاهر أو مادي فلما

ظهرت من بعض الفقهاء

أخذهم بظواهر الأمور الدينية كان لا بد أن تظهر طائفة تجمع بين

ظاهر الشرع وباطنه

الشريعة والحقيقة فالتصوف أحدث نوعاً من التوازن الذي أثرى الحضارة

الإسلامية